Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذْ صِيحَ فيهِ بالرَّحيلِ فَهُتِّكَتْ على عَجَلٍ أستارهُ وستائِرُهْ(٥٥)

ففى هذه القصيدة ، تأملٍ لصروف الدهر ، التى لا تلبث أن تفجع الآمنين ، فتقلب سعادتهم بؤساً ، ونعيمهم شقاء ، وإن كانوا من ذوى البأس والسطوة ، وفيها نغم هادىء وقور ، كأنه لحن جنائزى يشيّع الراحلين ، ويناسب جلال الموت ، وفيها أيضاً تصوير دقيق يكاد يشخص منظر تفرق أهل القصر وذعرهم ، وتمزيق أستار القصر وبعثرة أثاثه . ويتذكر الشاعر من خلالها عهده المونق ، وأيامه البهيجة السالفة ، الأمر الذى يؤكد أن القصيدة لم تنظم يوم مصرع المتوكل ، كما زعم الشاعر ، فخدع بذلك جمهوراً من معاصريه ، كأبى العباس ثعلب(٥٦) . فليس فى القصيدة ثورة وتفجع وحرقة من يصف حادثاً قريباً أذهله ، كما ذهب معظم دارسيه ، ومنهم شارح ديوانه ، ولكنها تمثل من تجرّع المصاب ، فكتمه فى نفسه حيناً ، حتى إذا ما سمحت الظروف أخذ فى الإفصاح عن مشاعره نحو ما حدث ، فجاء قوله رزيناً ، يجلله نغم حزن هادىء ، وألم دفين ، ولكنه ليس بجامح ، وفى القصيدة شواهد كثيرة تؤكد أنه لم ينظمها غداة مصرع المتوكل ، ومنها قوله :

وَرُبَّ زمانٍ ناعمٍ ثَمَّ عهدُهُ تَرِقُّ حَوَاشِيهِ ويُونَقُ ناضِرُهْ

وقوله :

إذا نَحنُ زرنَاهُ أَجَدَّ لنَا الأَسى وقد كانَ قبلَ اليومِ يَبْهَجُ زائِرُهْ

فكيف يتسنّى له أنْ يتحدّث عن الزمان الناعم الذى ترق حواشيه ، وعن زيارته القصر الداثر ، وما خلّفت هذه الزيارة فى نفسه من ذكريات حزينة ، إن كان نظم القصيدة ليلة مصرع سيده .

أما قوله :

وَوحشَتَهُ حتَّى كأَنْ لم يُقِمْ بِهِ أَنيسٌ ، ولم تَحْسُن لِعَينٍ مَنَاظِرُهْ

كأَنْ لم تَبِتْ فيهِ الخِلافَةُ طَلْقَةً بَشاشَتُها ، والمُلْكُ يُشرِقُ زاهِرُهْ

---

(٥٥) ديوان البحترى ٢ : ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ .

(٥٦) يروى أن أبا العباس ثعلب قال حين سمع تلك القصيدة « ما قيلت هاشمية أحسن منها ، وقد صرح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب » ، انظر : زهر الآداب ١ : ٢٦١ .